٢ ـ الانتحار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيَّب بنُ رافع : وقام الشعبيُّ إلى الرجل فاعْتَنقَه فَرَحاً بما آلَ أمرُه إليه ، بعد إذ رأى النورَ يجرى على لونه ويترقرقُ فى دِباجته ؛ كأنما وَقَع الصلحُ بين وجهه وبين الحياة . ثم قال له : نِعْمَ أخو الاسلام أنت ، فاسْتَعِذْ بالله من خِذلانه ، فانه ما خَذَلكَ إلا وضْمُكَ نفسَك بإزاءِ الله تعارِضُه أو تجارِيه فى قدرته ، فَيكِلُكَ إلى هذه النفس ، فتنتهى بك إلى العجز ، وينتهى العجزُ بك إلى السخط ؛ ومتى كنتَ عاجزا ساخطا ، محصورا فى نفسك ، موكولاً إلى قدرتك — كنتَ كالأسد الجائع فى القَفْر ، إذا ظن أن قوّته تتناول خلقَ الفريسة ؛ فيدعو ذلك إلى نفسك اليأسَ والانزعاجَ والكآبة ، وأمثالَها من هذه المُهلِكات تقْدحُ فى قلبك الشكَّ فى الله ، وتُثبتُ فى رُوعك شرَّ الحياة ، وتُهدى إلى خاطرك حماقاتِ العقل ، وتقرِّر عندك عجزَ الارادة ؛ فتنتهى من كل ذلك ميِّتاً قد أزهقتْك نفسُك قبل أن تُزْهِقَها !

ولو كنتَ بَدَلَ إيمانك بنفسك قد آمنتَ بالله حقَّ الايمان — لسلَّطك اللهُ على نفسك ولم يسلِّطها عليك ؛ فاذا رمتك المطامعُ بالحاجة التى لاتقدر عليها ، رميتَها من نفسك بالاستغناء الذى تقدر عليه ؛ وإذا جاءتك الشهواتُ من ناحية الرغبة المقْبلة ، جئتَها من ناحية الزُّهد المنصرف ؛ وإذا ساورَتْك كبرياءُ الدنيا أذْلَلْتَها بكبرياء الآخرة

وبهذا تنقلب الأحزانُ والآلام ضُروباً من فرَحِ الفوز والانتصار على النفس وشهواتها ، وكانت فنونا من الخِذْلان والهمّ ؛ وتعود موضعَ نخيرٍ ومباهاة ، وكانت أسبابَ خِزْيٍ وانكسار . وعزيمةُ الايمان إذا هى قوِيتْ حصرَت البلاءَ فى مقداره ، فاذا حصرتْه لم تزل تَنقُصُ من معانيه شيئاً شيئاً ؛ فاذا ضعفتْ هذه العزيمة جاء البلاءُ غامراً مُتفَشِّياً يُجاوِزُ مقدارَه بما يَصْحبُه من الخوف والرَّوع ، فلا تزال معانيه تزيد شيئاً شيئاً بما فيه وبما ليس فيه

وللايمان ضوءٌ فى النفس ينير ما حولها ـ فتراه على حقيقته الفانية ، وشيكاً أن يزول ؛ فاذا انطفأ هذا الضوءُ انطَمسَت الأشياء ، فتتوهمها النفس أوهاماً مُتباينةً على أحوالها المختلفة : كالرى الأعمى يوهِمه لاعينُه مع الاشياءِ تكون فى طبيعتها ، ولا أشياؤه عند عينيه تكونُ فى حقيقتها

* * *

قال المسيَّب : وكانت الشمسُ قد طفَّلَتْ للمغيب ؛ فقال الامام للرجل : قم فتوضّأ وأسبغ الوضوء ، وسأعلِّمك أمرا تنتفع به فى دينك ودنياك : فاذا قمتَ إلى وُضوئك فأيقِنْ فى نفسك واعزِمْ فى خاطرك على أن فى هذا الماء سرًّا روحانيا من أسرار الغَيب والحياة ، وأنه رمزٌ للسماء عندك ، وأنك إنما تتطهَّر به من ظلُمات نفسك التى امتدَّت على أطرافك ؛ ثم سَمِّ اللهَ تعالى مفيضاً اسمه القادرَ الكريمَ على الماء وعلى نفسك معاً ، ثم تمثَّلْ أنك غسلتَ بيديك مما فيهما ومما تتعاطاه بهما من أعمال الدنيا ، وأنك آخذٌ فيهما من السماء لوجهك وأعضائك ؛ وقرِّر عند نفسك أن الوضوء ليس شيئاً إلا مَسحةً سماوية تسبغها على كل أطرافك ، ليشعرَ بها جسمكَ وعقلك ؛ وأنك بهذه المسحةِ السماوية تستقبلُ اللهَ فى صلاتك سماوياً لا أرضيا

فاذا أنت استشعرتَ هذا وعملتَ عليه وصار عادةً لك ، فان الوضوء حينئذ ينزل من النفس منزلةَ الدواء ، كلما اغتممتَ أو تكرَّهتَ أو تسخطت ، أو غشيكَ حزنٌ أو عَرَضَ لك وسْواس ؛ فما تتوضأ على تلك النية إلا غسلتَ الحياةَ وغسلتَ الساعة التى أنت فيها من الحياة[1] وترى الماءَ تحسبه هدوءاً ليناً لينَ الرِّضى وإذا هو ينسابُ فى شعورك وفى أحوالك جميعا

قال المسيب : وقمتُ أنا فجدَّدتُ وضوئى على هذه الصفة بتلك النية ؛ فاذا أنا عند نفسى مستضىءٌ بروحٍ نجميةٍ لها إشراقٌ وسناء ، وإذا الوضوءُ فى أضعف معانيه هو ما علمنا من أنه الطهارةُ والنظافة ، أما فى أقوى معانيه فهو إفاضةٌ من السماء فيها التقديسُ والتزكيةُ وغسلُ الوقتِ الانسانىِّ مما يخالطه كلما مرَّت ساعات ، وابتداؤُه للروح كالنبات الأخضر ناضراً مطلولاً مترَطباً بالماء

(١) هذه فى رأينا حكمة تكرار الوضوء وتلك هى أسراره عندنا . وقد بينا شيئاً من حكمة الصلاة فى مقالة حقيقة المسلم ، فليرجع إليها القارئ

ثم صلى بنا الشيخُ وأمرني بالمبيت مع الرجل ، كأنما خشي البدَوَاتِ أن تَبدُوَ له فتنقضَ عَزْمَه ، أو هو زادني عليه لأُغيِّر شخصه وأبدِّلَ وحدتَه التي كان فيها ، أو كأنَّ الشيخ لم يأمن على الرجل أن يكون إنسانه الروحيُّ قد تنبهَ بأكمله فوضعني كالتنبيه له

وجاءنا العشاءُ من دار الشيخ فطعمنا ، ثم قام الرجل فتوضأ وصلينا العتمة وجلسنا نتحدث ، فاستنبأته نبأه ، فقال : مَهلاً ، ثم نهض فتوضأ الثالثةَ وقال : تاللهِ ما أعرفُ الوضوءَ بعد اليوم إلا ملامَسةً بين السماء والنفس . وما أعرف وقته من الروح إلا كساعة الفجر على النبات الأخضر

* * *

قال المسيَّب : وأصبحنا فقدونا على الامام ؛ ثم لزمني الرجلُ في بعض أموري ، ثم وافينا المسجد صلاةَ العصر لحضور درس الشيخ ؛ وكان الناسُ كالحَبِّ المتراصِفِ على المُنقود ، لا أدري من ساقهم وجمعهم ؛ كأنما علمت الكوفةُ أن رجلاً مسلماً كفَرَ بالله كفْرةً صلْعاءَ ، وأنه سيحضُر درس الشيخ وسيحضر الشيخُ من أجله ، فهيَّتْ الرياحُ الأربع تسوق أهلها إلى المسجد من أقطارها

وجلس الشيخ مجلسَ الحديث فقال :

رَوَيْنا أن رجلاً كانت به جِراحةٌ ، فأتى قَرَناً له فأخذَ مِشْقصاً [1] فذبحَ به نفسَه ؛ فلم يُصلِّ عليه النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) وترك جنازتَه مطرودةً تقتحم مَتْلفةَ الآخرة كما اقتحمتْ متلفةَ الدنيا !

روينا في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : « الذي يخنقُ نفسه يخنقُها في النار ، والذي يطعن نفسَه يطعنُ نفسه في النار ، والذي يقتحم يقتحم في النار ! »

روينا عنه (صلى الله عليه وسلم) : « من قَتلَ نفسَه بشيء عُذِّب به يومَ القيامة ! »

روينا عنه (صلى الله عليه وسلم) قال : « كان رجلٌ به جِراحٌ فقتل نفسه ، فقال الله : بَدَرني عبدي بنفسه حرَّمتُ عليه الجنة ! »

قال الشعبيّ : يقول الله : « بَدَرَني عبدي بنفسه » أي بدرني وتألَّه جَعَلَ نفسَه إلَه نفسِه ، فقبضَها وتوفاها ، فكان ظالماً

بَدَرني وتألَّه في آخرِ أنفاسه لحظةَ ينقلبُ إليّ ، فكان مع ظُلمِه مغروراً أحمق !

بدرني وتألَّه حين ضاق ، فهوَّرَ نفسَه في الموت من عجزه أن يمسِكَها في الحياة ، فكان عاجزاً مع ظُلمه وغُروره وحُمْقِه !

بدرني وتألَّه على جهله بسرّ الحياة وحكمتها ، فلم يَستَتِح هذا المخلوقُ الظالم المغرور في حمقه وعجزه وجهله ـ لم يستح أن يجيئني في صورة إلَه !

بَدَرني وتألَّه ، فطبَع نفسَه طابعَها الأبدي من غيّ وتمرّد وسفاهة ، وأرسلها إليّ مقتولةً يردُّها عليّ

بدرني وتألَّه كأنما يقول : إن له نصفَ الأمر ولي النصف ، أنا أحييتُ وهو أمات . . . !

بَدَرَني عَبْدي بنفسه فحرَّمتُ عليه الجنة !

قال الشعبيّ : وإنما تحرم الجنةُ على من يقتل نفسَه ، إذ ينقلبُ إلى الله وعلى روحه جِنايةُ يده ما تُفارقها إلى الأبد ؛ فهو هناك جِيفةٌ من الجِيَف مسمومةٌ أبداً ، أو مخنوقةٌ أبداً ، أو مذبوحةٌ أبداً ، أو مهشَّمةٌ أبداً ، يقول الله له : أنت بَدَرْتني بنفسك ، وجريتَ مني في القَدَر مجرًى واحداً ، فستخلد نفسك في الصورة التي هي من عملك ، وما قتلتَ إلا حسناتك

قال الشعبيّ : ولو عرف قاتلُ نفسه أنه سيصنع من نفسه جيفةً أبديّة ، فمن ذا الذي يعرف أنه إذا فعل كذا وكذا تحوّل حماراً وبقي حماراً فيرضى أن يتحوّل ويسرعَ ليتحوّل ؟

من ذلك نظر النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) إلى جنازة ذلك الرجل الذي قتل نفسه كما ينظر إلى ذبابةٍ توجّهت بالسبّ إلى الشمس والكواكبِ والأفلاكِ كلها ، ثم جاءته تقول له : اشهدْ لي

* * *

قال الشيخ : ولِمَ يقتل الانسانُ نفسه ؟ أما إن الموت آتٍ لاريب فيه ولا مَقْصرَ لِحيّ عنه ، وهو الخيبةُ الكبرى تُلقى

(١) القرن (بفتحتين) جعبة النشاب ، والمشقص : سهم فيه نصل عريض

على هذه الحياة ، فما ضررُ الخيبة الصغيرة فى أمرٍ من أمور الحياة ؟

إن المرء لا يقتل نفسه من نجاحٍ بل من خيبة ؛ فان كانت الخيبة من مال فهى الفقر أو الحاجة ، وإن كانت من عافية فهى المرضُ أو الاختلال ؛ وإن كانت من عِزّة فهى الذل أو البؤس ، وإن كانت مما سوى ذلك ـ كالنساء وغيرهن ـ فهى العجز عن الشهوة أو التخيل الفاسد

وليس يخيب الانسانُ إلا خيبةَ عقلٍ أو إرادة ، وإلا فالفقرُ والحاجة ، والمرضُ والاختلال ، والذلُّ والبؤس ، والعجز عن الشهوة وفساد التخيل — كل ذلك موجودٌ فى الناس ، يحمله أهلُه راضين به صابرين عليه ، وهو الغبار النفسى لهذه الأرض على نفوس أهلها ، ويا عجباً إن الُعميان هم بالطبيعة أكثر الناس ضحكاً وابتساماً وعبثاً وسخريةً ؛ أفتريدون أن تخاطبكم الحياةُ بأفصحَ من ذلك ؟

ليست الخيبة هى الشر ، بل الشرُّ كلُّه فى العقل إذا تبلّد فجمد على حالةٍ واحدة من الطمع الخائب ، أو فى الارادة إذا وهنت فبقيت متعلقةً بما لم يوجَد . أفلا ترون أنه حين لا يُبالى العقلُ ولا الارادة لا يبقى للخيبة معنًى ولا أثرٌ فى النفس ، ولا يخيب الانسانُ حينئذٍ بل تخيب الخيبةُ نفسُها ؟

لهذا يأبى الاسلامُ على أهله الترفَ العقليَّ والتخيُّلَ الفاسد ، ويشتدُّ كلَّ الشدة فى أمر الارادة ؛ فلا يترخّص فى شىءٍ يتعلّق بها ، ولا يزال يُنمّيها بأعمالٍ يوميّة تشدُّ منها لتكونَ رقيبةً على العقل حارسةً له ، فان للعقل أمراضاً كثيرة يطيش فيها درجاتٍ من الطيش حتى يبلغَ الجنونَ أحياناً ؛ فكانت الارادة عقلاً للعقل ؛ هى لِينُه إذا تصلّب ، وهى حركتُه إذا تبلّد ، وهى حِلْمُه إذا طاش ، وهى رضاه إذا سَخِط

الارادة شىءٌ بين الروح والعقل ، فهى بين وجودَين ؛ ولهذا يكون بها الانسان بين وجودَين أيضاً ، فيستطيع أن يعيش وهو فى الدنيا كالمنفصل عنها ، إذ يكون فى وجوده الأقوى ، وجودِ روحه ، وأكبرُ همِّه نجاحُه فى هذا الوجود

وهذا النجاح لا يأتى من المال ، ولا تُحقّقه العافية ، ولا تُيسره الشهوات ، ولا يُسنّيه التّخيلُ الفاسد ؛ ولا يكون من متاع الغرور ، ولا مما عُمرُه خمسون سنة أو مائة سنة ، بل يأتى مما عُمرُه الخلود ، ومما هو باقٍ أبداً فى معانيه من الخير والحق والصلاح . فههنا يُعين المرضُ بالصبر عليه مالا تعين الصحة ، ويُفيد الفقرُ بحقائقه مالا تُفيد الثروة ؛ وهنا يكون العقل الانسانىّ عاملاً أكثر مما هو متخيِّل ، وقانعاً أكثر مما هو طامع ، وههنا لا موضعَ لغلبة الشهوة ، ولا كبرياءِ النفس ، ولا حُبِّ الذات ؛ وهذه الثلاث هى جالبةُ الشقاء على الانسان حتى فى أحوال السعادة ، وبدونها يكون الانسانُ هانئاً حتى فى أحوال الشقاء

بالارادة المؤمنةِ القوية ينصرف ذكاء المؤمن إلى حقائقِ العالم وصلاح النفسِ بها ، وبغير هذه الارادة ينصرف الذكاءُ إلى خيال الانسان وفساد الانسان

وإذا انصرف الذكاء إلى حقائق الدنيا كان العقل سهلاً مَرِناً مِطواعاً ، واستحال عليه أن يفهم فكرةَ قتل النفس أو يُقرّها ؛ فان هذه الفكرة الخبيثةَ لا تستطرق إلى العقل إلا إذا تحجّر وانحصر فى غرض واحدٍ قد خاب وخابت فيه الارادةُ ففرغت الدنيا عنده

ولو أن امرأً تم عزمُه على قتل نفسه ثم صابَر الدنيا أياماً ، لا نفسخ عزمُه أو تركَ ، إذ يلين العقلُ فى هذه المدة نوعاً ما ، ويجعلُ الصبرُ بينه وبين المصيبة مسافةً ما ، فتتغير حالةُ النفس هوناً ما . فالصبر كالتروُّح بالهواء على العقل الذى يكاد يختنق من احتباسه فى معنى واحدٍ مُقفلٍ من جوانبه . ومَثلُ العقل فى هذه الحال مَثلُ القائم فى إعصارٍ لفه بالتراب لفاً وسدَّ عليه منافذَ الهواء ، وحبسه فى هذا التراب الملتفِّ حَبسَ الحشرةِ فى جوف القصبة ؛ فهو على اليقين أنها حالة ساعةٍ طارئةٍ فى الزمن لا حالةُ الزمن ؛ وأن الهواء الذى جاء بهذا الهمِّ هو الذى يذهب بهذا الهمِّ

وكما أن الأرض هى شىءٌ غيرُ هذا الاعصار الثائر منها ، فالحياة كذلك هى أمرٌ آخرُ غيرُ شقائها

* * *

قال الامام : وفى كتاب الله آيتان تدلان على أنه كتابُ الدنيا كلها ، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين : أحدهما المثال الروحىّ للفرد الكامل ، والآخر المثال الروحىّ للجماعة الكاملة

أما الآية الأولى فهى قوله تعالى : « لقد كان لكم فى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ واليَوْمَ الآخر . »

وأما الثانية فهى قوله تعالى : « مُحَمَّدٌ رسولُ الله والَّذين مَعَهُ أَشِدَّاء على الكفَّارِ رُحماء بَيْنَهُمْ . »

فى رجاء الله واليوم الآخر يتسامى الانسان فوق هذه الحياة الفانية ، فتمرُّ همومها حولَه ولا تصدمه ، إذ هى فى الحقيقة تجرى من تحته فكأنْ لا سلطان لها عليه ؛ وهذه الهموم تجد فى مثل هذه النفس قوى بالغةً تصرفها كيف شاءت ، فلا يجىء الهمُّ قوةً تسحق ضعفاً ، بل قوة تمتحن قوةً أخرى أو تُثيرها لتكون عملاً ظاهراً يقلده الناس وينتفعون منه بالأسوة الحسنة ، والأسوةُ وحدها هى علم الحياةُ

وقد ترى الفقير من الناس تحسبه مسكيناً ، وهو فى حقيقته أستاذ من أكبر الأساتيذ يلقى على الناس دروس نفسه القوية

وفى رجاء الله واليوم الآخر يبطل أكبر أسباب الشرِّ فى الناس ، وهو نَظر الانسان لمنْ هو أحظى منه بفتنة الدنيا نظراً لا يبعث إلا الحقد والسخط ، فينظر المؤمن حينئذ الى ما فى الناس من الخير والصلاح والايمان والحق والفضيلة ، وهذه بطبيعتها لا تبعث إلا السرور والغبطة ، ومَن جعلها فى تفكيره أبطل أكثر الدنيا من تفكيره ؛ وبها تسقط الفروق بين الناس عاليهم ونازلهم ؛ كالرجل الفقير العالم إذا قدم على الغنىِّ العالم ؛ جمع بينهما الاتفاق العقلىُّ وسقط ما عداه

وفى رجاء الله واليومِ الآخر يعيش الانسان عُمْرَه الطويل أو القصير كأنه فى يومٍ يصبح منه غادياً على الحشر والحساب ؛ فهو متصلٌ بالخلود غيرُ معْنىٍّ إلا بأسبابه ؛ وبهذا تكون أمراضه وآلامُه ومصائبه ليست مكارهَ من الدنيا ، بل هى تلك المكارهُ التى حُفَّت الجنةُ بها ؛ ولا يضرُّه الحرمان لأنه قريب الزوال ، ولا يضُرُّه المتاع لأنه قريب الزوال أيضاً

وفى رجاء الله واليومِ الآخر يَسُود الانسان على نفسه ؛ ومن كان سَيِّدَ نفسه كان سيدَ ما حولها يصرِّفه بحكمه ، ومن كان عَبْدَ نفسه صرَّفه بحكمه كلُّ ما حوله

قال الشعبىُّ : وأما المثالُ الروحىُّ للجماعة الكاملة ، فهو فى وصف المؤمنين بأنهم « رُحماءُ بينهم » فهذا هذا ، ما أحسبه يحتاج إلى بَسْطٍ وبيان

إنَّ أكثر ما يضيق به الانسان يكون من قِبَلِ من حوله ممَّن يعايشهم ويتصل بهم لا من قِبل نفسه ، فاذا قام اجتماعُ أمةٍ على أنهم (رُحماءُ بينهم) تقرَّرت العظمةُ النفسيَّةُ للجميع على السواء ؛ ومن كانوا كذلك لم يحقِروا الفقيرَ بفقره ولم يُعظموا الغنىَّ لغِناه ، وإنما يُحَقِّرون ويعظِّمون لصفاتٍ سامية أو حقيرة . وبين هؤلاء يكون الفقيرُ الصابرُ أعظمَ قدراً من الغنىِّ الشاكر ، وإعظامُ الناسِ لفضيلةِ الفقير هو الذى يجعل فقرَه عند نفسه شيئاً ذا قيمة فى الانسانية

ومتى تصححت آراءُ الجماعةِ فى هذه المعانى المؤلمةِ للناس بَطَلَ ألمها واستحالت معانيها ، وصار لا يبلَى معنًى من معانى الحياةِ فى إنسانٍ إلا وضعَ إيمانُه معنًى جديداً فى مكانه ، وتصبح الفضيلةُ وحدها غايةَ النفس فى الجميع ؛ وبذلك يصبر الفردُ على مصائبه ، لا بقُوته وحده ولكن بجميع القوَى التى حوله . أفلا ترَوْن أن إعجاب الناسِ بالشجاعةِ وتعظيمهم صاحبها يضع فى ألمِ السلاحِ لذةً يحسُّها لحمُ الشجاعِ البطل ؟

* * *

قال المسيَّب بن رافع : فقام رجلٌ من المجلس . فقال : أيها الشيخ ، وإذا فَسد الناس وغَلُظت قلوبُهم ، وتقطَّعت بينهم الأسباب ، ولم يعودوا (رُحماء بينهم) ، وشمتوا بالفقير ، وتهزَّءوا بالمُبتلَى وطرحوه فى ألسنتهم كما يطرَح الشاعرُ فى لسانه رجلاً يهجوه لا يكفُّ عنه — فما عسى أن يصنع المسكين حينئذ وكلُّ شىءٍ يدفعه إلى قتل نفسه ؟

وقال الشعبىُّ : ها هنا الرجاءُ فى الله واليومِ الآخر ، وهو شعورٌ لا يُشترَى بمال ، ولا يُلتمسُ من أحد ، ولا يَعسرُ على من أراده ؛ والفقيرُ والمُبتلَى وغيرُهما إنما يصنع كلٌّ منهم مِثالَه السامى ؛ فالصبر على هذا العَنَت هو صبرٌ على إتمام المِثال ، وإذا وقع مايسوؤك أو يحزُنك فابحث فيه عن فكرته السامية ، فقلَّما يخلو منها ، بل قلما يجىء إلا بها[1]

قال المسيب : فقام آخر فقال : وكيف يصنع امرؤٌ آلتْ به أحوالُ الدنيا إلى ما يُخيفه ، أو بَلَغ الهمُّ مبلغه من قلبه فهم أن يقتلَ نفسه ؟

قال الشعبىُّ : فليجعل الخوفَ خوْفَين : أحدهما خوفُه عذابَ الله خالداً مخلداً فيه أبداً ؛ فيذهب الأقوى بالأضعف .

(١) كتبنا فى (المساكين) كلاما كثيراً فى هذه المعانى ، بل الكتاب كله قائم عليها